

أورانك زيب . سلطان تشبه بالراشدين

(١)

أحمد أبو زيد، كاتب صحفي

ظلت سيرة الخلفاء الراشدين عبر الحصور نبراساً ومثلاً أعلى للكثير من الخلفاء والسلاطين والأمراء، الذين حاولوا الاقتداء بسيرتهم الرشيدة في الحكم، وعدلهم بين الرعية، وكان عمر بن عبد العزيز، الذي اعتبره المؤرخون خامس الخلفاء الراشدين، على رأس هؤلاء الذين تشبهوا بالسلف الصالح من الراشدين المهديين، فنشروا بين الناس العدل والفضل والأمن والأمان، وحضروا بذلك سيرتهم العطرة على صفحات التاريخ، وعظم بذلك شأنهم ورفع بذلك ذكركم.

ولم ينته التشبه بالخلفاء الراشدين عبر المصور، فوجدنا السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين، والسلطان نور الدين محمود زنكي، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، ثم وجدنا سلطاناً آخر يظهر في الهند المسلمة خلال الحصور الوسطى، لكي يحيى سيرة الراشدين في حكمه وسيرته، ويقتدي بهديهم وسنتهم في سياسة الناس.

والعلوم بين سواد الناس، والقضاء على كثير من البدع والخرافات التي كانت ذاتة بمملكته العريضة في عهد أسلافه.

المولد والنشأة:

ولد السلطان أورانك زيب عالم كير في بلدة "دوحد" في كجرات بالهند في (١٥ من ذي القعدة ١٠٢٨هـ - ٢٤ / أكتوبر ١٦١٩م)، وأورانك زيب: معناها بالفارسية "زينة الملك"، وعالم كير: معناها بالفارسية "جامع زمام الدنيا أو العالم"، فهي القاب وليست أسماء.

وقد نشأ في بيت عز وترف وشرف، فأبوه هو "السلطان شاه جهان" أحد أعظم سلاطين دولة المغول المسلمين في الهند، وأمه "أرجمند بانو" المعروفة باسم "ممتاز محل" صاحبة مقبرة "تاج محل"، إحدى روائع

ورعاً، سنياً على مذهب أهل السنة والجماعة، مكثراً في نوافل الطاعات، مجافياً للمعصية وأهلها، موزعاً لأوقاته: فوقت للعبادة، ووقت للمذاكرة، ووقت لأصحاب العسكر، ووقت لأصحاب الحاجات، ووقت لمجلس الأمراء والوافدين، وهكذا لم يعرف فراغاً ولا لها طوال حياته.

استهدف من حكمه إقامة العدل ونشر التوحيد وخدمة الإسلام والمسلمين، ولما جلس على عرش المملكة الهندية، بدأ يسير على منهاج النبوة الأولى في إقامة شعائر الدين، وإنصاف المستضعفين، ورفع راية الجهاد على سائر المرتدين والمعاندين، وأخذ الجزية من الهندوس وغيرهم، مع القيام على حوائج الأرامل والثكالي والفقراء من المؤمنين، كل هذا مع الزهد والعبادة، ونشر العلم

إنه السلطان المعظم "أبو المظفر محيي الدين محمد أورانك زيب عالم كير"، سلطان الهند، في القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجري، الذي حكم شبه القارة الهندية ٥٢ سنة، فكان أعظم ملوك الدنيا في عصره، وأعظم من حكم مملكة الهند الإسلامية في أقصى اتساعها. تشبه في حكمه وسيرته بالخلفاء الراشدين، وأقام العدل في سلطنته، وقضى على مظاهر الشرك، وأقام للمسلمين دولة ذكرتهم بأيام أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، حتى قال عنه الشيخ علي الطنطاوي: "بقية الخلفاء الراشدين" أو "سادس الخلفاء الراشدين".

اشتهر هذا السلطان بلقب "عالم كير"، وكان من المجتهدين في العبادة، تقياً

وصبر، وتطلع إلى المعالي والرقى.
إداري بارع:

وكان أورانك زيب الأخ الثالث بين ثلاثة أبناءهم "شجاع" و"مراد بخش"، فتولى "شجاع" إمارة البنغال، وتولى "مراد بخش" إمارة الكجرات، وتولى "أورانك زيب" إمارة الدكن في وسط الهند، فتعلم أورانك الإدارة وأتقنها وسير أغوارها فكان من ملوك المسلمين القلائل الذين برعوا في إدارة الدولة، ومع ذلك قاد الجيوش بنفسه في عهد أبيه، فقمع الثورات وطهر البلاد وأظهر في الأرض العدل، وكانت له هيبه وسمة الملوك، وظل الأمر كذلك حتى كان ما كان من وفاة أمه "ممتاز محل" التي بوفاتها انشغل السلطان "شاه جهان" ببناء مقبرة يخلد فيها ذكراها، وصرف لذلك الأموال، وحمل الناس على العمل الشاق فأهملت السلطنة، وظهرت بوادر الفتن والثورات، ولم يكن للسلطان يومها من هم إلا النظر إلى ضريح امرأته، وكان قد أمر ببناء ضريح أسود اللون له، مماثل لضريح زوجته، وفي هذه الظروف التي يمر بها السلطان، وثب الأخ الأكبر لأورانك على أبيه فاستولى على كل شيء إلا الاسم، فظل يحكم باسم أبيه.

المسلمين من قبل، ولم يقم في وجه هذا السلطان أحد، وظل الأمر كذلك، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره، فظهر الشيخ الجليل أحمد السرهندي، وأخذ يدعو الأمراء وقواد الجيش وذكرهم بالله، وأحيا في نفوسهم حمية الدين.

ولما مات السلطان أكبر وجاء من بعده السلطان "شاه جهان"، تولى الشيخ محمد معصوم السرهندي ابن الشيخ أحمد السرهندي تربية هذا الطفل الصغير أورانك، وبذل له رعايته كلها فنشأ نشأة دينية وقرأ القرآن فجوده، والفقه الحنفي وبرع فيه، وألخص فآتقنه فكان خطاطا بارعا، وأحب الشعر فكان شاعرا، وتربى على الفروسية والقتال، وتعلم اللغة العربية والفارسية والتركية.

وبذلك عني شاه جهان بتربية ابنه تربية إسلامية على يد كبار العلماء، حتى برع في كثير من العلوم الإسلامية وتبحر فيها، وثب متمسكا بالإسلام حريصا على الالتزام به، غيورا عليه، وصاحب تلك الروح الفتية خبرة إدارية وعسكرية اكتسبها من خوضه المعارك مع أبيه، وتوليه شؤون بعض الولايات، فلما تولى الحكم كان قد نضجت خبراته واستوت ملكاته الإدارية، فظهر أثر ذلك على الفور، وقدم لدولته على طول عمره المديد ما يشهد على ذلك من قوة وإخلاص وعزيمة

الفن المعماري في العالم، والتي تعد الآن من عجائب الدنيا السبع الحديثة، والتي تم بنائها في ٢٠ عاما وعمل على إنشائها أكثر من ٢١ ألف شخص.

فروسية منذ الصغر: ومنذ صغره ظهر من أورانك زيب علامات الجد والإقبال على الدين والبعد عن الترف والملذات، وكان فارسا شجاعا لا يشق له غبار، ويروى في ذلك قصة: فقد كان مع إخوته في يوم بحضور أبيه السلطان شاه جهان في احتفال، وكان في الاحتفال فقرة لحلبة أفيال، فشرد فيل من الحلبة وجرى نحو "أورانك زيب" وهو آنذاك ابن ١٤ عاما، فضرب الفيل الفرس الذي يمتطيه أورانك زيب بخرطوميه وطرح أورانك أرضا وأقبل نحوه، فثبت أورانك في مكانه واستل سيفه وسط ذهول الناس وإكبارهم لهذا الأمير الصغير وظل يدافع عن نفسه أمام الفيل الضخم، حتى جاء الحرس وطردوا الفيل فقيه وخطاط وشاعر:

وقد نشأ أورانك وترعرع وتربى تربية إسلامية خالصة، محبا لمذهب أهل السنة، واستقى الدين على مذهب الإمام أبي حنيفة، فقد كان أبو جده "جلال الدين أكبر" في أواخر أيامه قد حمل الناس على دين جديد يجمع بين الديانة الهندوسية والإسلام، ومنع الجزية عن الهندوس وغير المسلمين، فأتى بذلك أمر لم يسبقه إليه أحد من سلاطين

أورانك زيب .. سلطان تشبه بالراشدين

(٢)

أحمد أبو زيد، كاتب صحفي

شبه القارة الهندية إلى ولاية مغولية إسلامية، ربط شرقها بغربها وشمالها بجنوبها تحت قيادة واحدة، وقضى على فتنة البرتغاليين في المحيط. إبطال الضرائب:

وقد أبطل أورانك زيب ٨٠ نوعاً من الضرائب التي أثقلت كاهل الناس، وشجعهم على زراعة الأراضي وعاونهم على إصلاح البور منها، وفرض الجزية على غير المسلمين بعدما أبطلها أجداده، وفي الوقت نفسه تمتع الهندوس مع المسلمين بإلغاء الضرائب عليهم، كما أبعد طائفة كبيرة من الهندوس عن المناصب الرفيعة والوظائف الكبرى في دولته، وعين القضاة، وجعل له في كل ولاية نائباً عنه، وأعلن في الناس أنه "من كان له حق على السلطان فليرفعه إلى النائب الذي يرفعه إليه".

وخصص موظفين يكتبون كل ما يقع من أحوال رعاياه ويرفعونها إليه، وأبطل عادة تقديم الهدايا إليه كما كان يفعل من قبل مع أسلافه، وكان يجلس للناس ثلاث مرات يومياً دون حاجب يسمع شكاواهم. تواضع وزهد وتقشف:

وكان هذا السلطان يحيا حياة زاهدة متقشفة، فقضى على الأبهة والفخامة التي كانت تحيط بالملك في قصره، وألقى المبالغات المخالفة للشرع في استقبال السلطان وتحيته، فمنع عادة تقبيل الأرض بين يديه والانحناء له، ومنع الخطب الطويلة التي تقال لتحية السلطان، واكتفى بتحية الإسلام، وحفظ القرآن الكريم كله بعد ما أصبح سلطاناً.

وأظهر تمسكه بالإسلام والتزامه بشرائعه، فأبطل الاحتفال بالأعياد الوثنية مثل عيد النيروز، ومنع دخول الخمر إلى بلاده،

بداية عهد العدل والحق:

ولكن هذا الأخ الأكبر كان مائلاً للنديا، يريد إرجاع الهند إلى ما كانت عليه في عهد أبي جده "جلال الدين أكبر"، فرفض ذلك أورانك المسلم الورع التقوي، وقام معه أخوه الآخر، فاستطاع أورانك أن يأخذ الحكم لنفسه، وقمع الثورات التي شنها إخوته عليه، ووضع أباه المنصرف عن الحكم في حصن آكرا، وأحاطه بكل أنواع التقدير، دون أن يكون له يد في مباشرة الدولة، وكانت للحصن شرفة تطل على تاج محل ضريح زوجته، فكان دائم النظر إليه، وظل كذلك حتى مات، وبذلك أعلن أورانك زيب نفسه سلطاناً على البلاد، وكان وقتها في الأربعين من عمره، وابتدأ عهد العدل والحق، فقد أن الأوان أن يرى المسلمون صورة أبي بكر وعمر وعثمان في شخص أورانك زيب عالم كبير جهاد دائم:

ف عندما وصل إلى منصب السلطان حكم البلاد بالحزم والعدل، وعزم على الجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، فلم يركن أورانك إلى الدعة والراحة، بل لبس ثياب الحرب من أول يوم، وظل في جهاد دام ٥٢ سنة، حتى خضعت له شبه القارة الهندية كلها من مرتفعات الهما لايا إلى المحيط ومن بنجلاديش اليوم إلى حدود إيران.

فقد شهدت إمبراطورية المغول الإسلامية بالهند في عهده (١٦٥٨ - ١٧٠٧م) أقصى امتداد لها، وذلك بفضل الجهود العسكرية التي بذلها السلطان، حيث خاض المسلمون في عهده أكثر من ٣٠ معركة قاد هو بنفسه ١١ معركة منها، وأسند الباقي لقواده، ولم يبق إقليم من أقاليم الهند إلا خضع تحت سيطرته، فاستطاع تحويل

مصحفان للحرمين بخط يده:

وكان يكتب بخطه المصاحف ويبيعها ويعيش بثمرتها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها، ولم يستطع أن يحج إلى بيت الله الحرام، فاستعاض بذلك أن كتب مصحفين بخط يده وأرسل واحداً إلى مكة والآخر للمدينة. كما كان صاحب عبادة عظيمة، يكثر من الصوم ويصلي الفرائض في وقتها جماعة مع المسلمين، ويؤم المصلين في رمضان، ويعتكف في العشر الأواخر، وألف كتاباً شرح فيه أربعين حديثاً شريفاً، على غرار الأربعين النووية. الفتاوى الهندية العالمية:

وتميز عهد أورانك زيب بإضفاء الصبغة الإسلامية على شؤون الحياة، فازدهر التعليم في عهده، وكثرت المدارس، وأنشأ دوراً للعجزة والمستشفيات وأقام الحمامات والاستراحات لأبناء السبيل.

وقد وفق السلطان، كما يقول الأديب الشيخ علي الطنطاوي في كتابه: "رجال من التاريخ"، إلى أمرين لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين: الأول: أنه لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بعمل، بتأليف أو بتدريس، لئلا يأخذ المال ويتكاسل، فيكون قد جمع بين السيئتين، أخذ المال بلا حق وكتمان العلم.

والثاني: أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية في موسوعة واحدة، تتخذ قانوناً للحكم والفتوى، فوضع له وبأمره وتحت إشرافه "الفتاوى الهندية" أو "الفتاوى العالمية" على المذهب الحنفي، قام بإعدادها نخبة من كبار الفقهاء الأحناف، وعينها للقضاء يفتون بها، وقد طبعت هذه الموسوعة بمصر سنة (١٢٨٢هـ - ١٨٦٥م) وبحاشيتها كتابان من أهم المصادر التي اعتمدت عليها، وهما: الفتاوى الخانية، والفتاوى البزازية، وهي موسوعة يعرفها كل طلبة العلم.

السلطان في نظر المؤرخين:

وينظر المؤرخون المسلمون إلى هذا السلطان نظرة إجلال وتقدير، لجليل أعماله والتزامه قبل

وصرف أهل الموسيقى والغناء عن بلاطه، وتروى في ذلك قصة: أنه كان يوماً خارج قصره فرأى الموسيقيين والقينات يلبسون السواد ويكونون ويحملون نعشا، فسأل ما هذا؟ قالوا: هذا الغناء والمعازف نذهب لدفنها، فقال رحمه الله: إذن أحسنوا دفنها لئلا تقوم مرة أخرى.

وعني بإقامة نظام الحسبة ودعمه بما يكفل قيامه بوظيفته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانت هذه السياسة ضرورية لإنقاذ الدولة مما أصابها من عوامل الضعف والتفكك، وإصلاح أحوال المسلمين بعد أن ساد بينهم منذ عهد السلطان "أكبر" تهاون شديد في أمور العقيدة.

وبفضل سيرته الحسنة، وعدله وورعه، دخل الملايين من البوذيين في الهند إلى الإسلام. مسجد بادشاهي:

وفي مجال العمارة أقام المساجد ومدنها بالعلماء والخطباء والوعاظ، وعمرها بالعلماء وطلبة العلم، وشيد الحمامات والخانقاهات والمدارس والبيمارستانات، وأصلح الطرق وبنى الحدائق، حتى أصبحت "دلهي" في عهده حاضرة الدنيا.

ومن أشهر المساجد التي شيدها مسجد بادشاهي في لاهور بباكستان، الذي يعد من معالم هذه المدينة التاريخية، ومن أكبر المساجد في العالم، لما يتميز به من جمال العمارة وشموخها، فهو تحفة فنية ومعمارية، يتميز بواجته الهائلة الارتفاع والمبنية على النسق المغولي، وهو رمز شامخ للتراث المغولي بباكستان.

ويعتبر ثاني أكبر مسجد في البلاد بعد مسجد الملك فيصل بإسلام آباد، فله ساحة هائلة مترامية الأطراف، ويقدر عدد المصلين الذين يمكن أن يستوعبهم المسجد وساحته الواسعة، بحوالي (١١٠ آلاف شخص)، وخاصة في المناسبات الكبرى، مثل صلاة العيدين، حيث تتسع قاعته الداخلية لعشرة آلاف، وساحته الخارجية لمائة ألف مصل.

الكنيسة تطالب بتدريس الإسلام

بكافة مدارس ألمانيا

دعا رئيس مجلس أساقفة الكنيسة البروتستانتية في ألمانيا هاينريش بيدفورد شتروم إلى تدريس الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين في كافة المدارس الرسمية بالبلاد، معتبرا أن هذا يمثل أفضل وقاية لهؤلاء من تأثير "الأصوليين المتشددين".

وفي مقابلة مع صحيفة "هايلبرونه شتمه"، بحسب "الجزيرة نت"، رأى بيدفورد شتروم أنه من الضروري إتاحة الفرصة للتلاميذ المسلمين في المدارس الألمانية للتفاعل بشكل أفضل مع تقاليدهم الدينية وتعلم الجديد عن الإسلام على قاعدة من الدستور الألماني.

ووفقا لمؤتمر وزارات التربية في ولايات ألمانيا الـ 16، فإنه يدرس بالمدارس الحكومية ما يزيد على مليون تلميذ مسلم.

وقد بدأت ولاية شمال الراين عام 2012 مشروعا يوصف بالرائد لتدريس الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين في كل مدارسها.

كذلك اتبعت هذه المبادرة خمس ولايات ألمانية أخرى، هي بافاريا وبادن فورتمبرغ وسكسونيا السفلى وهيسن وراينلاند، كما بدأت ولاية السار بتدريس الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين في السنة الأولى.

وحدث رئيس مجلس الكنيسة البروتستانتية المنظمات الإسلامية في ألمانيا على تحمل مسؤولية الإشراف على تدريس الإسلام بكافة مدارس البلاد على غرار ما تقوم به الكنائس المسيحية المختلفة في ما يتعلق بالدين المسيحي.

وتمنى بيدفورد شتروم اتفاق مسلمي ألمانيا على ممثل واحد لهم أمام الدولة، ليتسكنوا بذلك من الإشراف على حصص التربية الدينية الإسلامية.

وأيد الأسقف البروتستانتى التوسع في تأسيس مراكز للدراسات الإسلامية بالجامعات الألمانية لتتمكن من تأهيل أعداد مناسبة من معلمي الدين الإسلامي وفق معايير علمية.

غيره بشرائع الإسلام، وحرصه على نشر الإسلام، فقد قال عنه "المرادي" في ترجمته التي ضمها كتابه "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر": "سلطان الهند في عصرنا، وأمير المؤمنين وإمامهم، وركن المسلمين ونظامهم، المجاهد في سبيل الله، العالم العلامة الصوفي العارف بالله، والملك القائم بنصرة الدين، الذي أيد الإسلام وأعلى في الهند مناره، وجعل كلمة الله هي العليا، وقام بنصرة الدين، وفتح الفتوحات العظيمة، ولم يزل يفتوح، وكلما قصد بلدا سلكها، إلى أن نقله الله إلى دار كرامته وهو في الجهاد، وصرف أوقاته للقيام بمصالح الدين وخدمة رب العالمين من الصيام والقيام والرياضة التي لا يتيسر بعضها لأحد الناس فضلا عنه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكان موزعا لأوقاته: فوقت للعبادة، ووقت للتدريس، ووقت لمصالح العسكر، ووقت للشكاة، ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته، لا يخلط شيئا بشيء، والحاصل أنه كان حسنة من حسنات الزمان، ليس له نظير في نظام سلطنته ولا مدان، وقد ألفت في سلطنته وحسن سيرته: الكتب الطويلة بالفارسية وغيرها فمن أرادها فليطلع عليها".

وصيته قبل الموت:

وقد توفى السلطان في (28 من ذي القعدة 1118هـ - 20 من فبراير 1707م)، وهو في التسعين من عمره، بعد أن حكم 52 سنة، تاركا ذكرى عطرة لحاكم مسلم لم تشفله دنياه وحروبه المتوالية عن دينه وآخرته، فكان إمبراطورا لم تشهد الهند مثله في اتساع ملكه وصلاح خلقه، وحسن سيرته وسريته.

وكان قد بلغ من تقواه أنه حين حضرته الوفاة أوصى بأن يدفن في أقرب مقابر للمسلمين وألا يعدو ثمن كفنه خمس روبيات. وبوفاته انتهت عظمة دولة المسلمين في الهند، فجاء من بعده حكام ضعاف وظل الأمر كذلك حتى انتهت تماما بسقوط آخر سلطان "بهادر شاه الثاني" عام 1857م بواسطة الإنجليز، ولم تقم للإسلام قائمة منذ ذلك الزمن في تلك البلاد الشاسعة. ●●